تعقيبا على حوار الشيخ ناصر العمر: رؤية مغايرة للحركة الإسلامية في الجزائر

10-6-2004

إن التصور الذي يجعل الحركة الإسلامية في الجزائر في منأى عن الأخطاء المرتكبة، من حيث تأثيم النظام الحاكم تأثيما كليا، واعتباره السبب الرئيس والوحيد لما حل بالجزائر.. ليس دقيقاً ولا منصفا، لأنني أعتقد أن الاعتراف بالذنب وتحمل عواقب الأخطاء خطوة إلى الأمام

بقلم يوسف شلي

أثار فضيلة الشيخ ناصر العمر منذ أيام في حوار له مع موقع "المسلم.نت" -http://www.almoslim.net/- العديد من التساؤلات عن مدى مجانبة الحركة الإسلامية في الجزائر لنهج الوسطية والاعتدال والعلم الشرعي بعد أن خاضت – أو جزءا كبيرا منها– لخيار العمل المسلح والخروج على الحاكم، وبيان مشروعية العمل الجهادي وضوابطه وموانعه، ومن ثَمّ مدى مشروعية الأعمال التي حدثت وكانت وبالا على الجزائر والجزائريين .. كما طرح التساؤلات الشرعية التي تقف سدا منيعا في وجه انتقال الحركة الإسلامية في الجزائر من مستوى (المواجهة) إلى مستوى (المسالمة) ولكن دون جدوى ما دام العنف المسلح مستمرا إلى يومنا هذا ..
ونحن أيضا في هذا الإطار نطرح جملة من التساؤلات على شيخنا الفاضل ناصر العمر عن عوائق تحول الحركة الإسلامية من الممارسة "العنيفة" إلى الممارسة "السلمية" الهادئة؟ وهل الحركة الإسلامية عموما والجزائرية خصوصا ضحية نظام أم تتحمل جزءا ليس لما حدث للجزائر وما زال يحدث؟

* من الثقافة السلمية إلى الثقافة العنفية .. هل الحركة الإسلامية مريضة فكريا؟:

من المفيد بداية تشخيص الأمراض والمشكلات التي عانت منها الحركة الإسلامية في الجزائر وخاصة في أساسيات نهجها الفكري والعقدي أين وقع فيهما الكثير من الاختلال وسوء الفهم، فالتجزئة القاتلة التي كانت قائمة بين الكلمة والفعل امتدت وانتقلت من التصورات الفكرية والذهنية البحتة لتصل إلى التجسيد الفعلي والعملي وفي أوساط العمق الشعبي، أين اختلطت مفاهيم التكفير والتفسيق بالمسدس والخنجر لترويع الناس ومعاقبتهم بعد وقوفهم محايدين في أغلبهم في الصراع الذي كان يدور بين الطرفين المتصارعين النظام الجزائري والجماعات المسلحة, فتغلّب لدى الكثير من أفراد الحركة الإسلامية العصبيات الفكرية والنظرات الضيقة على معاني الوحدة. وإن الصراع الذي تعاني منه الحركة الإسلامية وعلى أكثر من صعيد، والأوضاع الفكرية المتردية في كل مجال، وغياب الحوار بين فصائل الحركة الإسلامية المختلفة، وبينها وبين حكّامها، كل ذلك أثر في حقيقة دور هذه الحركة عند تحديد أولوياتها في معالجة هذه المشكلات، وعند الحديث عن كيفية معالجتها لها.

وأود الإشارة بسرعة في هذه المقالة إلى أن المسألة الأساسية في طرح شيخنا الفاضل ناصر العمر حول الأسئلة والتعليقات على بيان الجزائر في حواره الذي خص به الحركة الإسلامية في الجزائر, لم تأخذ حظها الكافي والوافي من الشرح والتفسير من فضيلته، وإن كل ما ورد حولها يبدو تفسيرا مقبولا، غير أن الواقع الذي يشهده الحال الجزائري فاق كل وصف, باعتباره وضعا مأساويا اتفق الجميع على شناعته, حددت معالمه التجاذبات بين الإسلاميين وغير الإسلاميين, مع مراجعة لما جرى في العشرية الدموية الماضية، وتقويم التنظيمات السياسية والجماعات الإسلامية العاملة في الساحة الوطنية (التي هي أقرب إلى خطوات على طريق النقد الذاتي).. إلى ما هنالك من إجراءات تتعلّق بتيسير الانتقال من عهد فيه "دخن" و"غبش" إلى عهد أكثر انفتاحا على الواقع وفقهه, بما يتيح للحركة الإسلامية في الجزائر انطلاقة واعية من حيث تقديرها للوقائع المادية على أرض الواقع وأثرها على المدى البعيد في تأكيد أصالة الحركة الإسلامية في الجزائر بما تستبعده من استخدام القوة أو العنف في تحقيق أهدافها السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية.

ولا أعفي الحركة الإسلامية من مسئولية تحويل قضية إرساء الحكم الإسلامي في الجزائر بديلا للنظام القائم, إلى قضية نظرية لا تجد سبيلاً لإقناع الجماهير بها - لأنها فرضت على الشعب بقوة السلاح- ولأنها خطوة نحو المجهول، أكدت الأيام صحة المتخوفين من سلوك هذا الطريق.

وأشير أولاً إلى أن هذا التصور الذي يجعل الحركة الإسلامية في الجزائر في منأى عن الأخطاء المرتكبة طيلة العهدين الأخيرين بعد الصحوة الإسلامية المباركة، من حيث تأثيم النظام الحاكم تأثيما كليا, واعتباره السبب الرئيس والوحيد لما حل بالجزائر من مآسي وهزات ومحن، ونفي مسئولية الحركة الإسلامية من قريب أو بعيد عن بعض الأخطاء "القاتلة" التي وقعت فيها، كان بمثابة الشرارة التي استغلتها القوى المناوئة للحركة الإسلامية من العلمانيين والتغريبيين سواء في السلطة أو خارجها، ممن أسهبوا في ذكر الأخطاء المرتكبة من طرف الإسلاميين .. وهذا التصور ليس دقيقاً ولا منصفا، لأنني أعتقد أن الاعتراف بالذنب وتحمل عواقب الأخطاء خطوة إلى الأمام.

كما أن الشعارات التي رفعت من قبل من طرف بعض الإسلاميين في الجزائر من أنصار الجبهة الإسلامية للإنقاذ لا أعتقد أنها تستحق الإشادة والتشجيع، لأنها أصلاً لم تكن صادرة عن غالبية الشعب الجزائري في عمقه الداخلي، الذي وقف معارضا لها معاديا لنهجها من خلال مسايرته لكل المراحل الانتقالية التي شهدتها الجزائر غداة دخولها النفق المظلم في السنوات الأخيرة، ولا يمكن أن يكون لها قبول أيضا من الناحية الإسلامية، فالفصائل الأخرى الإسلامية عارضت التوجه التي سارت عليه الجبهة الإسلامية, ولكن الشعب الجزائري ليس ككل الشعوب, ففيه زيادة من "المتحمّس" و"الجاهل" و"المتهور" و"المستعجل"، ومن هؤلاء من حمُل شعار(لا قانون ولا دستور قال الله قال الرسول) على غير محمله الشرعي والسياسي, فهذا الشعار أسيء فهمه, حيث اعتبر البعض أن الشعب الجزائري منقسم بين من يتبنى القانون والدستور وبين من يتبنى قول الله تعالى "القرآن" وقول الرسول الكريم صلوات

الله وسلامه عليه "السنة" .. فالخطأ هنا بين وجلي, لأن المسلمين جميعاً رغم خلافاتهم التي لا تنتهي يعتبرون أن قول الله وقول رسوله ملزم لهم لا ينبغي الخروج عليهما، فالقضية بالنسبة إليهم قضية كفر وإيمان, ولكنهم لا يعتبرون أن هذه النصوص المحددة في الآيات والأحاديث تغني المسلم عن التفكير والبحث في كثير من جوانب الحياة, السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وقد كان كتاب الله موجوداً ورسول الله صلى الله عليه وسلّم حياً بين الصحابة، عندما كتب أول دستور في المدينة المنورة لتأسيس الدولة الإسلامية الناشئة، وتحديد علاقاتها مع اليهود الذين يعيشون معها(انبثق عنه فيما بعد تفاصيل ما يسمى بفقه أهل الذمة)، ولم يقل أحد من كبار أو صغار الصحابة – رضي الله عنهم - إن قول الله وقول رسوله يغني عن وضع هذا الدستور الذي سمّي وثيقة..

الحركة الإسلامية في الجزائر.. من فشل إلى آخر.. والنهاية مجهولة:

ويبقى السؤال: لماذا فشلت الحركة الإسلامية في الجزائر في تقديم الإسلام كمشروع حضاري؟ حركة شاركت مباشرة في الاستحقاقات الرئاسية المتتالية، آخرها نجاح خيار التحالف الذي اختارته حركتي حمس و النهضة "الإسلاميتين" مع وجوه من التيار الوطني واللائكي؟! هنا نشير إلى سببين رئيسيين – مرتبطين بالسياق العام الذي ذكرناه آنفا- تتردد على ألسنة المحللين، وهما :

أولا: رد الفعل على المجازر التي ارتكبت في أوساط الشعب :

وهذا السبب تردد في الأوساط الشعبية التي اعتبرت أن هذه المجازر لم تكن لتحدث لو حددت الحركة الإسلامية أولوياتها وقطعت الطريق أمام المغامرين في صفوفها وأكدت على الخطوط الحمراء الممنوع تجاوزها مهما كانت الظروف والأسباب والمسوغات.. وفي هذا الإطار ساهمت صحافة الفتنة والمواجهة من خلال لفت الأنظار إلى أن فوز الحركة الإسلامية في الجزائر في أي استحقاق، في حال تحققه، يشكل تحديا كبيرا بشأن قدرة السلطة الحاكمة في التحكم في الأوضاع، كما أنه يشكل تحديا خطيرا للتيار الديمقراطي العلماني الذي يحرص على التأكيد دوما على أن على الحركة الإسلامية أن تحدد موقفها من "توافق الإسلام مع الديمقراطية... وتكييف الإسلام مع العصرنة والحداثة".

ثانيا: الفساد والانحراف في المنهج والتصور :

وهذا يعتبره البعض سببا رئيسيا لفشل الإسلاميين؛ على اعتبار أنه الفاصل بين الشرعية وغير الشرعية، و بين النظافة السياسية و"العفن " السياسي، خاصة أنه مرتبط بمصلحة الشعب وقيمه مباشرة، و أيضا بالنظم الحاكمة المتعاقبة التي اشتركت معها في تسيير شئونها اليومية بعدما نخر سوس الفساد في العظم، وبدأت تنتشر الفضائح والاحتجاجات الشعبية بما يهدد العروش نفسها والاستقرار السياسي برمته.

* أين النهاية؟:

ولكن السؤال بعد كل هذا هو: إلى أي حد وإلى أي مدى سيتمكن الإسلاميون من التكيف مع الواقع الجديد في إثر فشلهم المتكرر؟! وما طبيعة العلاقة بينهم وبين الشعب والأحزاب والسلطة؟

بعبارة أخرى: هل تراهن هذه القوى الإسلامية على تغيير تدريجي مع الزمن؟ وهل تنجح في هذا؟ أم أن مصالح القوى الحاكمة خاصة المرتبطة منها بالنفوذ الخارجي المتعاظم ستقف لها بالمرصاد؟ وكيف ستتعامل مستقبلا في هذه الحالة؟

قد يفوز المشروع الإسلامي في الجزائر يوما ما شريطة لمّ شمله ووضوح برنامجه واحترام حدوده وفواصله، وبواقعيته الجديدة التي تنبذ الاكتساح وهواية القفز والعجلة– كما حدث للبعض -، وتراعي قبول وقابلية الجماهير، وتتعامل في إطار من الشفافية والأمانة داخليا وخارجيا. وتعمق التواصل مع المعارضة بكل أصنافها، وتسعى في طي عهد القطبية التي كانت مفتعلة بين السلطة والإسلاميين، والتي لم تترك حيزا كبيرا لها للعمل واكتساب المنتمين وعرض مشروعها وتحقيق البديل الحقيقي في الميدان في جميع المجالات المعيشية المختلفة. وتنتهي الملفات الأمنية و"العنفية" مهما كان مصدرها أو عنوانها التي كانت مبررا في بعض الفترات لتقليص هامش الحريات الفردية والجماعية في البلاد، حتى يعيش الفرد إسلاميته ومواطنته بالكامل..

ملاحظة: لمن أراد الإطلاع على حوار موقع المسلم مع فضيلة الشيخ ناصر العمر، فهذا هو الرابط:

http://www.almoslim.net/figh_wagi3/show_conv_main.cfm?id=48